الخطابة في العصر الجاهلي والإسلامي، دراسة مقارنة

الدكتور/ كبير غرب دالا
المحاضر بقسم اللغة العربية جامعة عمر موسى يرأدوا كاتسينا- نيجيريا

مستخلص:

هذا البحث دراسة مقارنة في كيفية الخطابة بين العصر الجاهلي والإسلامي، ويشمل الحديث عن مفهوم الخطابة في العصرين، وعوامل التي تدفع الخطيب إلقاء الخطابة، وقيمة الخطابة لدى العرب، وموضوعات التي تبنى الخطابة عليها، وعادات العرب عند إلقاء الخطابة، ومميزات التي تميز الخطابة عن غيرها، ومنهج المتبع الذي يلزم على الخطيب أن يسلكه، وصفات الخطيب التي تتحتم عليه أن يتصف بها ونبذة وجيزة لأشهر الخطباء في العصرين، وأخيرا بعض نماذج الخطب التي ألقيت في العصرين.

المقدمة:

الحمد لله العالم بالكليات والجزئيات، وصلى الله على من أعطى جوامع الكلم، سيدنا ومولانا محمد وعلى آله وصحبه أعلام الهدى ومصابيح الظلام، ومن اهتدى بهديهم إلى يوم الزحام.

وبعد، إن الخطابة ضر من التكلم يحضر المتكلم (الخطيب) بنفسه أمام الناس في أمام الناس فيلقيها إليهم. والخطابة وسيلة يستعملها الخطيب في الجاهلية لإقناع السامعين له، والتأثير في نفوسهم، فيدافع فيها عن رأيه بنفسه، وإفاضته في كل ما يويد مذهبه، والخطابة أمر ضروري وفطري في الجاهلية عند ما كان العرب تعممها الآمية، ولا يرتبطها قانون عام، ولا حكومة منظمة، ولم تكن تحت راية سلطان واحد، فألجأت هذه الحالة إلى الاستعانة باللسان أداة القول بدل القلم أداة الكتابة.

وكون العرب أصحاب الفصاحة والبلافغة، وانقيادهم لسلطان البلاغة واستجابة خاصتهم وعامتهم لدعوة سادتهم، وتفرقهم قبائل مستعملة وعشائر صغيرة حيث يسهل عليهم الإجتماع في صعيد واحد والاستماع إلى خطيب فرد، وتعذر طرق التواصل المنظمة بينهم، كبريد يحمل رسائل، أو كتب مطولة، أو برق يوصل أخبارا هامة، أو صحف تنشر حوادث عامة، فكل هذه الأسباب وأمثالها أدَّت إلى حاجة ماسة لوجود خطيب حازق فصيح اللسان قوي الحجة فهيم ليخاطبهم في شؤونهم الداخلية والخارجية، ثم تطور أمر الخطابة في العصر الإسلامي، وتنوع إلى النواحي الدينية، والاجتماعية والسياسية والاقتصادية فتعددت المجالات التي يلقى الخطاب فيها خطبهم وهكذا إلى عصرنا هذا.

ويحتوى هذا البحث الحدثث عن درساة مقارنة في الخطابة في العصر الجاهلي والإسلامي، حيث تحدث عن نقاط هامة تتعلق بالخطابة في العصرين والنقاط كالآتي:- نقاط هامة تتعلق بالخطابة في العصرين: الجاهلي والإسلامي، وتشمل النقاط الآتية: مفهوم الخطابة وعوامل الخطابة، وقيمة الخطابة، وموضوعات الخطابة، عادات العرب في الخطابة، ومميزات الخطابة ومنهج الخطابة، وأفكار الخطابة، وصفات الخطيب، وأشهر الخطب، وأخيرا بعض نماذج الخطب في العصرين، وينتهى بالخاتمة.

والهدف الأسمى في هذا لبحث هو إجراء دراسة مقارنة لإظهار ما في العصر الجاهلي والإسلامي، من العوامل والفروق اليي فيما بينهما ومواضع الاتفاق والاختلاف فيهما.

مفهوم الخطابة:

الخطابة لغة: من خاطبه، مخاطبة، وخطابا، كالمه وحادثه، وخاطبه: وجه إليه كلاما. ويقال: خاطبه في الأمر، حدثه بشأنه.[1]

الخطابة اصطلاحا: هي طريقة اقناع الناس بالبلاغة الكلامية واللهجة العالمية، يحاول فيها الخطيب استثارة العواطف وطلب انقياد النفوس والقلوب.[2] فهي خطاب من فصيح نابه الشأن يلقيه على جماعة في أمر ذي بال،[3] يحضر بشخصه، ودفاعه عن رأيه بنفسه، وإفاضته في كل ما يؤيد مذهبه. [4]

عوامل الخطابة في العصر الجاهلي:

ومن العوامل الخطابية في العصر الجاهلي ما يلي:-

1. غلبة الأمية على العرب مما جعلهم يميلون إلى استخدام اللسان أداة القول في الخطابة بدلاً عن استعمال القلم أداة الكتابة.
2. كونهم أصحاب الفصاحة والبلاغة، واستجابة خاصتهم وعامتهم لدعاء سادتهم وكبرائهم وأولى النجدة فيهم عندالأمر الحافز والخطب لداهم، لما بين الداعي والمدعو من وحدة الجنس واللسان، وتوافر أسباب التفاهم والبيان.
3. تعذر طرق التواصل المنظمة بينهم، كبريد يحمل رسائل صافية، وكتبا مطولة أو برق يوصل أخبارا هامة، أو صحف ومجلات تنشر حوادث عامة.
4. تفرقهم إلى قبائل عدة مستقلة، وعشائر صغيرة وفئات مقاتلة؛ بحيث يتيسر لكل جمهور منهم الاجتماع في صعيد واجد، والاستماع إلى خطيب فرد.
5. شن الغارات لأسباب تافهة، وإفضاء ذلك إلى الدفاع عن النفس والعرض والمال، ثم إلى الإنتقام، لفراغ أكثرهم مما يشغل الخواطر والجوارح، من صناعة وزراعة وتجارة.[5]
6. إن حياة العرب الصحراوية، وما تقتضيه من بطلان، وما تدعو إليه من فروسية، وحدوث التنازع فيما بينهم مما جعلهم يقاتل ويحارب بعضهم بعضا، وشدة العصبية القبلية فيما بينهم التي أحدثت مفاخرات ومنافرات. كل هذا وذاك دافع للعرب بارتفاع شأن الخطابة في الجاهلية.
7. شاعت الخطابة في الجاهلية شيوعًا شديدًا؛ حيث أصبح الخطيب ملتف الأنظار، وسيدا مبجلا في قومه، ومطاعا في أمره، يدعوا فيجاب، وكان العرب يقدرون كل خطيب، نشأ فيهم، مما جعل ازدهار الخطابة. ثم آن واحد كانت للعرب حينئذاك ندوات لكل كبيرة وصغيرة، يجتمعون فيها للتشاور فيما بينهم، فيخطب فيها الخطيب، ويتكلم الأقيال، ومن أشهرها دار الندوة لرؤساء قريش، وكان للجاهلين إلى جنب الندوات أسواق مشهورة يجول فيها الخطباء والشعراء جولاتهم الأدبية، مما أثر في شيوع الخطابة وازدهارها.
8. كثرة الوفود التي تتداول من قوم إلى قوم، ومن قبيلة إلى قبيلة لأجل المناظرة أو دفاع، والوفود من قبيلة إلى ملوك اليمن أوالحيرة أو فارس أوغسان، في سبيل الذود عن الحياض، أو المطالبة بالحقول، وكذلك سافر من حوافز الخطابة يرفع شأنها ويمجد سلطلانها"[6]

عوامل الخطابة في العصر الإسلامي:

وبالنسبة للخطابة في العصر الإسلامي، حدث انقلاب عظيم وثورة اجتماعية وفكرية في العرب بظهور الإسلام، بالأمر الجليل والشكر الخطير والدعوة العظمى التي لم يعهد لها من قبل في العالم مثيل من أهم الحوادث أنشطت الألسن من عقلها، وأثارت الخطابة من مكمنها، وأغرت العقولل بإحكامها والافتتان فيها، واختلاب النفوس بسحر بيانها، فوق ماكانت عليه في جاهليتها. [7]

فالعهد صراع فكري ثم صراع سياسي، والوفود إلى النبي العربي صلى الله عليه وسلم تتبع الوفود وميادين القتال تتسع للفتوح اتساعا كبيرا ما جعل ازدهار الخطابة وتطورها. [8]

وفيما يلي عوامل الخطابة في العصر الإسلامي:

1- جعلت الشريعة على عاتق كل إمام أن يتحمل مسئولية الخطابة في حفل ديني، أو سياسي كالجمعة والعيدين، وموسم الحج الأكبر ويوم الصف كل أمر جامع لنشر فضيلة أو نهي عن رذيعة، أو إعلان نصر أو تأكيد وصية وغير ذلك من الأمور الهامة.

2- كون دعاة النبي صلى الله عليه وسلم ورسله إلى الملوك وأمراء جيوشه وسراياه ثم خلفاؤه من بعده وعمالهم كلهم خطباء مصاقع ولسنا مقاول، الأمر الذي ساعد على ارتفاع شأن الخطابة وتطورها.

3- توجيه الشريعة الأئمة، والخلفاء والأمراء والعمال والقواد وتشجيعهم على الخطابة، ولا سيما الدينية لشرحها الحقائق وقرعها الأسماء بالحجج العقلية والوجدانية وترغيبها في الثواب، وترهيبها من العقاب؛ ولخلوها من قيود الوزن والقافية ولأنها تقال بعبارة يفهمها العامة والخاصة من الجندي الصغير إلى القائد الكبير، وكان لهم من القرآن وأدلته وحججه والاقتباس منه مدد أيما مدد.

4- وفي جانب السياسة لعبت دورًا فعالاً في ارتفاع شأن الخطابة وازدهارها عند ما حدثت الفتنة الكبرى، بين المسلمين، أو (الحرب الأهلية) بعد مقتل عثمان رضي الله عنه، وافترقوا إلى عراقيين بزعامة علي بن أبي طالب رضي الله عنه، وشاميين بزعامة معاوية بن أبي سفيان رضي الله عنه، ولكل دعوة يؤيدها، أو رغيبة يناصل عنها في تلك الحرب الشعراء التي لم ينكب الإسلام بمثلها، ظهر في كلتا الطائفتين خطباء لا يحصى عددهم ولا يشق غبارهم، وعلى رأس العراقيين علي بن ابي طالب، وعلى رأس الشاميين معاوية بن أبي سفيان وما انتهت الحرب حتى تشعبت الفتن والآراء والمذاهب والنحل، وتفرق المسلمون إلى شيعة وخوارج وجماعية، وتفرع من هؤلاء الطوائف فروع شتى، وكل يبذل وسعه في نشر مذهبه ويدفع عنه بقائم سيفه، ولم تعدم كل طائفة منها خطباء يؤيدون دعوتها بما أوتوا من البلاغة في الخطابة والفصاحة والبيان.[9]

5- تراكم الخصومات بين القبائل التي جعلتهم يقتتلون كما جعلتهم يخطبون متوعدين ومنذرين على نحو ماحدث في خصومات قيس من جهة وتغلب والقبائل اليمنية من جهة أخرى سواء في الشام أو في الجزيرة. وكذلك خصومات تميم والأزد في البصرة، وما وقع من هذه السنة من الخصومات جميعا في خراسان، وهي خصومات كانت تختلط فيها العصبيات القبيلية بالسياسة وموقف القبائل من بني أمية ونصرتهم لهم أو انفضاضهم عنهم.

6- حركة الوفود: وقد أخذت هذه الوفود تكثر منذ حياة الرسول صلى الله عليه وسلم، وخاصة بعد فتح مكة، ولما فتحت الفتوح ومصرت الأمصار واستبحرت الدولة واتسعت كان يقدم على الخلفاء الراشدين من ينبئهم بالفتح، ومن يذكرون لهم حاجة قومهم في المصر الجديد، وفي عصر بني أمية تحولت هذه الوفود إلى سيول، تقصد قصور الخلفاء وقصور الولادة، متحدثة في شئون قومها، واشتهر معاوية في استخدامه الوفود من الأمصار حين تعن له فكرة سياسية، كفكرة تولية ابنه يزيد الخلافة من بعده، وكانت هذه الوفود تنوب عن أقوامها، في بيعة الخليفة الجديد وفي بث شكواها حين يلم بها ما يوجب الشكوى وانبعثت في هذه الأثناء خطب التهنئة والتعزية.

دور الجدل في مسائل العقيدة:

نشب جدل كثير في مسائل العقيدة كمسألة ارتباط الإيمان بالعمل وهل يعد المسلم مؤمنا وإن لم يؤد الفروض الدينية، ومثل مسألة حرية الإرادة وهل الإنسان مخيرون في الحياة أو ميسرة لاحول ولا قوة، ومثل مسألة صفات الله، هل هي عين الذات الإلهية أو غيرها، وسرعان ما تكونت فرق الجبرية والمرجئة والقدرية.

وقد تجادلت هذه الفرق جدالا طويلا في هذه المسائل العقيدية وهو جدال رشح لقيام مناظرات عنيفة بينها، وهي مناظرات حشدوا لها كل ما يمكن من أدلة نقلية عن الكتاب والسنة وأدلة عقلية مدارها على البرهان المنطقي. وجادلت الفرق أيضا طوائف من أصحاب الديانات السماوية وغير السماوية.

حركة أصحاب علم الكلام:

انبثقت علم الكلام في عهد بني أمية، وانبثقت معه صور خطابية جدلية هي صور المناظرة والمحاورة، هي صور جديدة ضمت إلى صور الخطابة السياسية الحفلية والدينية ، صور كانت تسعى إلى نقض أدلة الخصوم وبيان أنهم مخدوعون فيما يذهبون إليه من آراء، وكان الناس يجتمعون من حول أصحاب هذه الصور في حلقات يقف فيها المناظرات ومعه أصحابه، فيعلن رأيه ويدعم بكل دليل، ويتقدم خصمه بين أنصاره فيحاول أن يحطم له كل دليل قدمه، وأن يثبت رأيه هو بما يجمع له من براهين"[10]

مقارنة بين عصر الجاهلي والإسلامي في عوامل الخطابة:

اتفق عصر الجاهلي في عوامل الخطابة مع عصر الإسلامي في ستة مواضع، واختلفا في عشرة مواضع، وهي على النحو التالي:-

(أ) مواضع الإتفاق:

1. اتفق عصر الجاهلي مع الإسلامي في فصاحة وبلاغة الخطباء، واستجابة عوام العرب وخواصهم لدعوة سادتهم وأولى النجدة فيهم، ولاسيما في العصر الإسلامي حيث تكونت دعاة النبي صلى الله عليه وسلم ورسله إلى الملوك وأمراء جيوشه، ثم خلفاؤه وعمالهم كلهم خطباء مصاقع ولسن، الأمر الذي ساعدهم على استجابة المسلمين والإصغاء إليهم وساعد ذلك في تطور الخطابة وازدهارها.
2. إن حياة العرب الصحراوية في العصر الجاهلي وما تقتضيه من بطولات وفروسية وتنازع فيما بينهم وشدة العصبية، جعلتهم يقاتل ويحارب بعضهم بعضا، فأحدث هذا الهرج والمرج مفاخرات ومنافرات بينهم، كل هذا وذاك دافع للعرب بارتفاع شأن الخطابة، فاستمر هذا التفرق بين قبائل العرب في العصر الإسلامي حيث حدثت الخصومات فيما بينهم مرة أخرى، يقتل بعضهم بعضا، فأولدت هذه الفتن خطباء متوعدين ومنذرين طبق ما حدث بين قيس وتغلب، والقبائل اليمنية من جهة أخرى في الشام وفي الجزيرة.
3. كثرة الوفود في العصر الجاهلي التي تتداول بين أقوام وقبائل العرب لأجل المناظرة، أو الوفود من القبائل إلى الملوك في سبيل الذود عن الحياض، والمطالبة بالحقوق مما رفع شأن الخطابة، وكذلك كثرة الوفود في العصر الإسلامي بعد فتح مكة، وزيادة تداولهم زمن الخلفاء الراشدين حيث فتحت الفتوح ومصرت الأمصار، وتضاعف العدد في عصر بني أمية تقصد قصور الخلفاء والولادة لأجل المبايعة أو لإظهار التهنئة أو بث الشكوى، يبدين ذلك عبر خطبهم الأمر الذي جعل الخطابة تتطور.

(ب) مواضع الاختلاف في العصر الجاهلي والإسلامي:

اختلف العصران فيما بينهما في عوامل الخطابة بحيث استقل كل عصر بعدد من العوامل دون الآخر وفيما يلي مواضع الاختلاف:

اختلف عصر الجاهلي بالعصر الإسلامي في مسألة الآمية على العرب فاستخدموا اللسان بدلا من القلم، ثم طرق التواصل المنظمة فيهم، كبريد، أو كتب أو برق يوصل الأخبار أو صحف ومجلات تنشر الحوادث، وكذلك كثرة شن الغارات فيما بينهم لأسباب تافهة، إما دفاعا عن النفس، والعرض، والمال، للانتقام، وكون

الخطيب مقدرا ومبجلا فيهم، ومطاعا يدعو فيجاب دعوته، وكذلك كثرة نداوتهم لكل صغيرة وكبيرة، يجتمعون فيها للتشاور فيخطب فيها الخطيب، ثم تدال الخطباء إلى الأسواء المشهورة لإلقاء الخطب الأدبية.

مواضع الاختلاف في العصر الإسلامي:

اختلف عصر الإسلامي بالعصر الجاهلي من النواحي عدة، منها كون الحكومة قائمة منظمة والشريعة عادلة على عاتق كل إمام أن يتحمل مسئولية الخطابة في حفل ديني، أو سياسي، وتوجيهها وتشجيعا لهم، وللخلفاء والأمراء والعمال، والقواعد الخطابة دينية لشرحها الحقائق، وترغيبها في الثواب، وترهيبها في العقاب، وفي جانب السياسة لعبت دورا في ارتفاع شأن الخطابة عند ماحدثت الفتنة الكبرى بين المسلين، بعد مقتل عثمان رضي الله عنه وافترق المسلمون إلى فريقين، فرقة العراقيين، وفرقة الشاميين، ولكل دعوة خطباء يؤيدونها، فكثر الخطباء لا يحصى عددهم، ثم ظهور الجدل فيما بين المسلمين في مسائل العقيدة، فأولد هذا الجدل طوائفا جدلية مثل الجبرية والمرجئة والقدرية فأنتجت مناظرات عنيفة بين المسلمين، وبجانب ذلك ظهر أصحاب الكلام فأدلوا دلوهم وزاد الأمر غموضًا، واشتدت النزاعات والخصومات حول مشاكل علم الكلام فظهرت صور خطابية جدلية في زمن المناظرات والمحاورات.

موضوعات الخطابة في العصر الجاهلي:

لاتتجاوز الموضوعات الخطابية في هذا العصر ما يلي:

1- خطابة بطولة وفروسية، يقدمها الخطيب للدعوة إلى القتال والحض على النزال.

2- خطابة دفاع أو صلح وسلام، وخطابة مفاخرة أو منافرة أمام حكم يحكم وخطابة زهد عن الدنيا، تدعوا الناس عن الصدوف عن بهارج الدنيا والتعلق بحبال الآخرة، وخطابة كهان يشجعون شجع الحمام في سبيل هدف غيبي يطلقون وراءه الأقاويل، وينصبون على جوانبه الأقاويل وخطابة زواج يعقد ويبارك وخطابة موت يلم فيفجع، ويرمى القلوب في هذه سحيقة من الحزن، ويوجه الناس على التأمل في حقيقة الوجود، ثم أخيرا خطابة وصايا يتوجه بها الطاعنون في السن إلى أبنائهم وأحفادهم للسير في سبيل الخير والشر"[11]

موضوعات الخطابة في العصر الإسلامي:

تحتوى موضوعات الخطابة في هذا العصر ما يأتي:

أولها الخطابة في هذا العصر هي خطابة دينية إسلامية خطابة دين جديد، يتوجه إلى العقل والقلب، ويعمل على إيقاظ الوجدان البشري، توضح الآيات القرآنية بالبينات، ثم خطابة دفاعية تدحض آراء الخصوم، وترد على كل معاند ومكابر وخطابة سياسية تجمع شمل العرب في ظل النظام الجديد، وخطابة حربية التي يبعث فيها الخطيب الحمية في الصدور، ويذكر الحماسة في القلوب وتؤثر الخطابة في نفوس السامعين، وبجانب هذا الخطب خطابة المفاخرة والمنافرة، ثم خطابة الوفود وخطابة الاسخلاف والولاية عند مبايعة خليفة أو تولية وال أو عامل.

مواضع الإتفاق بين عصر الجاهلي وعصر الإسلامي والموضوعات:

اتفق عصر الجاهلي والاسلامي في الخطابية الدفاعية حيث يدافع كل عن نفسه ضدخصومه؛ ولكن الإسلام يدافع أيضا دون عقيدته ودينه، واجتمعا في المفاخرات والمنافرات، ولم تقف هذه الخطابة في العصر الجاهلي فحسب؛ بل ظهرت في العصر الإسلامي بشيء بسيط، ثم اتفقا من ناحية خطابة زهدية، حيث توجد في العصر الجاهلي فرارًا عن الدنيا وزخرفها، كما توجد في العصر الإسلامي داخلة في الخطابة

الدينية، وكذلك في الخطابة الزواج لكلا العصرين خطابة زوجية. وأخيرا اتفقا في الخطابة الوفود، لأن الوفود تأتي إليهم إما لسبب ديني، وسياسي، وافترقا فيما سوى ذلك من الموضوعات.

مميزات الخطابة في العصر الجاهلي:

هناك مميزات الخطابة عدة، منها، استعمل الفقر القصار، والمحاورات المختصرة التي بقيت من تراثهم، والتجويد في الكلام، واستعمال السجع واستعارة وأخيلة، وبهاء اللفظ وقوته وصناعته ووضوح الحجة. [12]

ويعنون في خطبهم لاسيما القصار منها بسرد كثير من الحكم والأمثال والنصائح، واستعمال الأدلة المؤثرة في النفوس، المهيجة في العواطف ممثلة في صور العبارات الرائعة، وكثرة الفواصل والأسجاع لحسن وقعها على ما فيها، من استرواح الخطيب وسهولة تدارك المعاني.[13]

مميزات الخطابة في العصر الإسلامي:

وتمتاز الخطابة في هذا العصر بما في الجاهلية بأشياء منها:

أولا: سلوكها طريقا دينيا في مثل خطب الجمع، والعيدين والحج والإرشادات والتوجيهات، ونحو ذلك مما يستدعيه نشر الدعوة.

ثانيا: اتباعها خطبة سياسية في مثل تأليف الجماعات والأحزاب وتأثيل الملك والسلطان، وما وقع للعرب، أكثر مما في العصر الجاهلي.

ثالثا: قوة تأثيرها ووصولها إلى قرار النفوس وامتلاكها للوجدان والشعور بوعظها الزاجر، ونصحها البالغ، مما رقق القلوب القاسية، وأسال الأعين الجامدة.

رابعا: صفاء ألفاظها، وسهولة عبارتها، ومتانة أساليبها، وتجنبها سجع الكهان وقلة القصد فيها إلى سرد الحكم القصيرة الدقيقة بمناسبة وغير مناسبة كما كانت تفعل خطباء الجاهلية.

خامسا: بداءتها بالبسملة والحمدلة والثناء على الله، والصلاة على رسول الله صلى الله عليه وسلم.

سادسا: محاكاتها أسلوب ا لقرآن في الإقناع، واستمدادها من آياته، حتى اشترط بعض أئمة المسلمين وجوب اشتمال خطبة الجمعة على شيء منه.

سابعا: تنوعها بين الإيجاز والإسهاب حتى حكى أن منها ما استغرق نصف النهار، ومنها مالم يزد على فقرات معدودات.

ثامنا: عذوبة الألفاظ، ومتانة الأسلوب، وقوة التأثير واقتباسها من القرآن الكريم وانتهاجها منهج القرآن والإرشاد والإقناع.

تاسعا: استعمال عنصر التهديد والوعيد ولاسيما في العهد الأموي ومراعاة نفسية المخاطبين الفعلية والدينية، والاستشهاد بالأمثال والشعر. [14]

عاشرا: الإعماد الى ضروب من التحسين والتمييز، والى ألوان من الترغيب والترهيب[15]

مواقع الإتقاف والاختلاف بين العصرين في المييزات:

اتفق عصر الجاهلي مع الإسلامي في المميزات التالية، وهي عذوبة الألف، ومتانة الأسلوب، وقوة التأثير، والتجويد في الكلام ووضوح الحجة وفي الإيجاز والإطناب، وفي استعمال السجع والإستثناء بالأمثال والشعر، ثم اختلف كل منها مع الآخر فيما سوى ذلك.

عادات العرب في الخطابة في العصر الجاهلي:

كان من عادة الخطيب في هذا العصر في غير خطبة الزواج أن يخطب قائما، أوعلى نشر من الأرض، أو على راحلته في الأسواق العظام والمجامع الكبار، لإبعاد مدى الصوت وللتأثير بشخصه وإظهار

ملامح وجهه وحركات جوارحه، ولا غنى له، عن لوث العمامة، والإعتماد على مخصرة أو عصا أو قناة أو قوس، وربما أشار بإحداها أو بيده. [16]

والخطيب الجاهلي شديد الاحتفال بالمظاهر التأثيرية كالحركات الصوتية وكثيرا ما يعمد إلى ألوان من هدل الشفاه، والتقعير، والتمطيط، والجهورة والتفخيم في الصوت. [17]

عادات العرب في الخطابة في العصر الإسلامي:

ولم يخرج الخطباء في هذا العصر عن مألوفهم في العصر الجاهلي من لف العمامة والاشتمال بالرداء واختصار المخضرة والاعتماد عليها أو عصا أو قوس والخبطة من قيام للإشراف على السامعين. [18]

قيمة الخطابة في العصر الجاهلي:

لم يعتن الرواة بنقل أخبار الخطباء وخطبهم إلا عند ما حلت الخطابة بعد منزلة أسمى من الشعر، لابتذاله بتعاطى السفهاء والعامة له، وتلوثهم بالتكسب به والتعرض للحرم فنبه بذلك بشأن الخطابة واشتهربها الأشراف، وكان لكل قبيلة خطيب، كما كان لكل قبيلة شاعر ويطابق هذا بقول الجاحظ، "وكان الشاعر أرفع قدرا من الخطيب وهم إليه أحوج لرده مآثرهم عليهم وتذكيرهم بأيامهم، فلما كثر الشعراء وكثر الشعر صار الخطيب أعظم قدرا من الشاعر،[19] والسبب في ذلك أن الشاعر هو الذي يهيج النفوس للحرب مما يدعو للأخذ بالثأر، أما الخطيب فكان غالبا يدعوا إلى السلم وأن تضع الحرب بين القبائل المتخاصمة أوزارها وكثيرا ما يقف من قومه موقف الناصح الأمين يهديهم ويرشدهم، أما الشاعر فأكثر مواقفه هجاء وتنابذ بالألقاب والأحساب والمآثر والمعايب. [20]

قيمة الخطابة في العصر الإسلامي:

لم تتغير قيمة الخطابة في هذا العصر عن قيمة العصر الجاهلي إلا أنها زاد وارتفع شأنها بدخول دين جديد، فزادت القيمة بهجة من حيث حفلت بالتقوى والنزعة الإنسانية، وقد نظمت روحا تنظيمة تشريعية واتسعت بسمة البلاغة الحقة التي أضفاها عليها القرآن، واكتسب من الفلسفة الجديدة عمقا وسموا. [21]

صفات الخطيب في العصر الجاهلي والإسلامي:

لم يستقل عصر بصفات دون آخر، بل يتصف كل خطيب في كلا العصرين بهذه الصفات الآتية:

وكان الجهور يفضلون من الخطيب أن يكون حسن الشارة وجهير الصوت سليم المنطق، ثبت الجنان،[22] وحضور البديهة وقلة التلفت وكثرة الريق، وكانوا يعيبون فيه التنحنح والارتعاش والحصر والتعثر في الكلام، وذموا في الخطيب أنه يكثر من مسه لذقنه وشواربه ولحيته. [23]وكانوا يحسنون من الخطيب أن يكون رابط الجأش، قليل اللحظ، متغير اللفظ، قوي الحجة، نظيف البزة، كريم الأصل عاملا بما يقول. [24]

أشهر الخطباء في العصر الجاهلي:

من مشاهير الخطباء ثلاثة وهم قس بن ساعدة، وأكثم بن صيفي، وعمرو بن معدي يكرب، وإلى القارئ موجز من تاريخهم:

1. قس بن ساعدة

شاع الخبر بأنه من عياد وأنه كان يقف في عكاظ واعظا وقد تزهد وتعب وتوفي سنة 600 م كان خطيب العرب وشاعرها وحكيمها في عصره، يعتمد أسلوبه التسجيع والتهويل وضرب الأمثال وتعرية الحقائق المصرية خطابته رسالة تبشيرية توقظ الضمائر. [25]

2. أكتم بن صيفي:

هو من أشهر حكماء العرب في الجاهلية توفي سنة 630 كان مثال الرصانة ورجل العقل يتخذه وسيلة للتأثير والإقناع. [26]

3. عمرو بن معدي يكرب الزبيدي:

اشتهر بالبأس، أسلم وشهد القادسية وتوفي نحو 643م كان سيدا مطاعا في قومه كما كان خطيبا وشاعرا له مقطوعات شعرية ونثرية مبثوثة في كتب الأدب.

أشهر خطباء العصر الإسلامي:

1- علي بن أبي طالب رضي الله عنه

هو علي بن أبي طالب رضي الله عنه ولد قبل الهجرة بإحدى وعشرين سنة، ورباه الرسول صلى ا لله عليه وسلم في بيته تخفيفا عن أبيه ولما بعث النبي صلى الله عليه وسلم بالرسالة كان علي مراهقا، فآمن به وشب على حبه، وتغلغلت أصول الدين في قلبه، وخاطر بنفسه في سبيل الرسول ليلة هجرته، وأبلى البلاء الحسن في تأيده ونصرته وشهد الغزوات كلها إلا تبوك، فقد خلفه النبي صلى الله عليه وسلم فيها على أهله.

2- سحبان وائل:

هو سحبان بن زفر بن إياد الوائلي الخطيب المصقع المضروب به المثل في البلاغة والبيان، نشأ في الجاهلية بين قبيلة وائل إحدى قبائل ربيعة ولما ظهر الإسلام أسلم وتقلبت به الأحوال حتى التحق بمعاوية رضي الله عنه، فكان يعده للملمات ويتوكأ عليه عند المفاخرة، لقوة عارضته وسرعة خاطره. [27]

3. زياد بن أبيه:

هو أحد دهاة العرب وساستها وخطبائها وقادتها، كالحارث بن كلدة الثقفي طبيب العرب، أمه تسمى سمية قرنها بعبد له رومي يدعى عبيدا، فولدته زيادًا هذا في السنة الأولى من الهجرة، فنشأ غلاما فصيحا شجاعا، داهيا، قارئا كاتبا، فما افتتحت العرب الممالك والأمصار حتى عرف منه ذلك، فاسكتبه أبو موسى الأشعري والي البصرة من قبل عمر رضي الله عنه. [28]

بعض نماذج الخطب في العصر الجاهلي:

نموذج من خطب قيس بن ساعدة الإيادي:

أيها الناس، اسمعوا وعو، من عاش مات، من مات فات، وكل ما هو آت آت، ليل داج، ونهار ساج، وسماء ذات أبراج، ونجوم تزهو، وبحار تزخر، وجبال مرساة، وأرض مدحاة، وأنهار مجراة، إن في السماء لخبرا، وإن في الأرض لعبرا، ما بال الناس يذهبون ولا يرجعون؟ أرضوا فأقاموا؟ أم تركوا فناموا؟ يقسم قس بالله قسما لا إثم فيه: إن لله دينا هو أرض لكم وأفضل من دينكم الذي أنتم عليه إنكم لتأتون من الأمر منكرا"[29]

نموذج من خطب أكثر من صيفي ألقاها أمام كسرى:

"إن أفضل الأشياء أعاليها، وأعلى الرجال ملوكها، وأفضل الملوك أعمها نفعا، وخير الأزمنة أخصبها، وأفضل الخطب أصدقها، والصدق منجاة، والكذب مهواة، والشر لجاحة، والحزم مركب صعب، والعجز مركب وطيء آفة الرأي الهوى، والعجز مفتاح الفقر، وخير الأمور الصبر وحُسن الظن عصمة ، سوء الظن ورطة، إصلاح فساد الرعية خير من اصلاح فساد الراعي..."[30]

نموذج من خطب عمرو بن معدي يكرب الزبيدي القاها أمام كسرى أنو شروان بالمدائن:

"إنما المرء بأصغريه قلبه ولسانه، فبلاغ المنطق السداد، وملاك النجعة الإرتباد، وعضو الرأي خير من استكراه الفكرة، وتوفيق الخبرة خير من اعتساف الحيرة. فاجتبذ طاعتنا بلفطك، واكتظم بادرتنا بحلمك، وألن لنا كنفك يلن لك قيادنا..." [31]

بعض نماذج الخطب في العصر الإسلامي:

نموذج من خطب علي بن أبي طالب، لما قام إليه رجل من أصحابه، فقال: "نهيتنا عن الحكومة ثم أمرتنا بها فلم ندر أي الأمرين أرشد"؟

فردعليه علي قائلا: "هذا جزاء من ترك العقدة: أما والله لو أني حين أمرتكم بما أمرتكم به حملتكم على المكروه الذي يجعل الله خيرا فإن استقمتم هديتكم، وإن أعوججتم قوّمكم وإن أبيتم تداركتم، لكانت الوثقى؛ ولكن بمن وإلى من؟ أريد أن أطوى بكم وأنتم دائي، كناقش الشوكة بالشوكة، وهو يعلم أن ضلعها معها، اللهم قد ملت أطباء هذا الداء الذوي، وكلت النزعة بأشطان الركي!..." [32]

نموذج من خطب سحبان وائل:

"إن الدنيا دار بلاغ، والآخرة دار قرار، أيها الناس فخذو من دار ممركم، إلى دار معركم ولا تهتكوا ستاركم، عند من لا يخفى أسراركم، وأخرجوا من الدنيا قلوبكم قبل أن تخرج منها أبدانكم ففيها حبيتم، ولغيرها خلقتم إن الرجل إذا هلك قال الناس ما ترك؟ وقالت الملائكة ما قدم؟ فقدموا بعضا يكون لكم ولا تخلفوا كلا يكون عليكم"[33]

نموذج من خطب زياد بن أبيه حين قدم ألى بصرة:

"أما بعد، فإن الجهالة الجهلاء والضلالة للعمياء، والغي الموفي بأهله على النار ما فيه سفهاؤكم، ويشتمل عليه حلماؤكم، من الأمور ينبت فهيا الصغير ولا يتحاشى عنها الكبير، كأنكم تقرؤو كتاب الله، ولم تسمعوا ما أعد الله من الثواب الكريم لأهل طاعته، والعذاب الأليم لأهل معصيته في الزمن السرمدي، الذي لا يزول، إنه ليس منكم إلا من طرفت عينه الدنيا وصدت مسامعه الشهوات واختار الفانية على الباقية، ولا تذكرون أنكم أحدثتم في الإسلام الحدث الذي لم تسبقوا إليه..." [34]

ومما يلاحظ أن أغلبية هذه الخطب التي صدرت من الفطاحل الخطباء في كل العصرين محشودة بالوعظ والتوجيه والإرشاد، والزجر عن الغرور بالدنيا الفانية، والتذكير بالبعث والحساب يوم القيامة.

الخاتمة:

ناقش الباحث في هذا البحث دور الخطابة في العصر الجاهلي إلى العصر الإسلامي، حيث تحدث في عن مفهوم الخطابة لغة واصطلاحا وعواملها في العصرين، وقارن ما في العصرين، وأظهر مواضع الاتفاقات والاختلافات فيما بينهما من العوامل. وناقش عن موضوعات الخطابة في العصرين مع مقارنة بينهما، و تحدث عن مميزات الخطابة وعادات العرب في الخطابة، وقيمة الخطابة في كل من العصرين ، ثم قارن فيما بينهما وأخرج ما اتفقا وما اختلفا من الفروق وتناول الحديث عن صفات الخطيب عموما وناقش في أشهر الخطباء الثلاثة في كلا العصرين، وبعض نماذج خطبهم.

نتائج البحث:

ومن نتائج ما يلي:

1. التعرف على دوافع الخطابة جاهلية وإسلامية.
2. التعرف على الفروق التي في الخطابة بين العصرين: جاهلي وإسلامي.
3. التعرف على مميزات الخطابة التي تميزها عن غيرها من أنواع النثر.

4. التعرف على أنواع الخطابة، في النواحي الدينية، والاجتماعية والسياسية والاقتصادية.

الهوامش:

1. أنيس، إبراهيم (الدكتور) وآخرون: المعجم الوسيط ج1.
2. الفاخوري، حنا، تاريخ الأدب العربي، (الأدب القديم) ص: 162.
3. الهاشمي، أحمد إبراهيم مصطفى: جواهر الأدب ص: 244.
4. الإسكندري، الشيخ أحمد مصطفى: الوسيط في الأدب العربي وتاريخه، ص: 23.
5. نفس المرجع، ص: 24.
6. الفاخوري، المرجع السابق، ص: 116-1177.
7. الاسكندرية، المرجع السابق، ص: 105.
8. الفاخوري، المرجع السابق، ص: 335.
9. الاسكندري، المرجع السابق، ص: 105-106.
10. ضيف، شوقي (الدكتور): تاريخ الأدب العربي (العصر الإسلامي) ص: 407- 409.
11. الفاخوري، المرجع السابق، ص: 117.
12. ضيف، شوقي (الدكتور)، تاريخ الأدب العربي (العصر ا لجاهلي)، ص: 418.
13. الاسكندري، المرجع السابق، ص: 25-26.
14. الندوى، محمد واضح رشيد الحسني، وآخرون: تاريخ الأدب العربي (العصر الجاهلي والعصر الإسلامي) ص:
15. ابن فودي، المرجع السابق، ص: 338.
16. الاسكندري، المرجع السابق ص: 26.
17. الفاخوري، المرجع السابق، ص: 118.
18. الاسكندري، المرجع السابق، ص: 118.
19. شوقي، ضيف، العصر الجاهلي، المرجع السابق، ص: 415.
20. نفس المرجع، ص: 416.
21. الفاخوري، المرجع السابق، ص: 338
22. الزيات: المرجع السابق، ص: 19.
23. شوقي، ضيف: عصر الجاهلي، المرجع السابق، ص: 487.
24. الفاخوري، المرجع السابق، ص: 124.
25. الفاخوري، المرجع السابق، ص: 125
26. المرجع نفسه والصحفة.
27. الإسكندري، المرجع السابق، ص: 115.
28. المرجع نفسه، ص: 116
29. المرجع نفسه ، ص؛: 32.
30. المرجع نفسه ، ص: 32.
31. الفاخوري، المرجع السابق، ص: 127.
32. الزيات، المرجع السابق، ص: 136.
33. المرجع نفسه ، ص: 137-138.
34. الإسكندري، المرجع السابق، ص: 117-118.

المصادر والمراجع:

1. أنيس إبراهيم (الدكتور) وآخرون، المعجم الوسيط ج1، (د.ط، د.ت).
2. الإسكندري، الشيخ أحمد وعناني، الشيخ مصطفى: (1916م-1335ه) الوسيط في الأدب العربي وتاريخه ، الطبعة السادسة عشرة، دار المعارف بمصر.
3. ضيف، شوقي، (الدكتور): (2008م) تاريخ الأدب العربي (العصر الإسلامي) الطبعة الخامسة والعشرون، دار المعارف..
4. _____ (2007م) تاريخ الأدب العربي (العصر الجاهلي) لطبعة السادسة والعشرون، دار المعارف.
5. الفاخوري، حنا: (2005م، 1426م) تاريخ الأدب العربي (القديم) دار الجيل، بيروت- لبنان.
6. الندوي، محمد واضح رشيد الحسني، والندوي، محمد الرابع الحسني: (1430ه-2009م) تاريخ الأدب العربي (العصر الجاهلي والعصر الإسلامي) الطبعة الثانية، دار ابن كثير للطباعة والنشر والتوزيع، دمشق- بيروت.
7. الهاشمي، أحمد إبراهيم مطصفى: (1302م-1424م) جواهر الأدب في بيان لغة العرب، ج1، دار الكتب العلمية بيروت- لبنان، الطبعة الثانية.